

مقومات البطولة العربية في السير الشعبية

حسناء سعادة

المدرسة العليا للآداب، بوزريعة الجزائر

تمهيد

يزخر تراثنا العربي بعدد من السير الشعبية، التي وعتها الذاكرة الجماعية للأفراد واهتموا بروايتها جيلا بعد جيل وصولا إلى عصرنا الحاضر، ما أدى إلى اتسامها بالطول المفرط والضحامة والتسلسل، حتى أصبحت كناية تطلق على من يطيل ويفرط في الكلام إلى درجة الإملال فيقال له "أهي سيرة"؛ ويرى عبد الحميد يونس بأن ذلك الطول لا يعود "إلى نمو عضوي في الشخصوس والأحداث بقدر ما يعود إلى تجميع حشد كبير من الأخبار والروايات وضمها بعضها إلى بعض. ومحاولة إضفاء مظهر الوحدة عليها. ولذلك فهي تنقسم إلى أجزاء كثيرة تتشعب بدورها إلى حلقات"¹. نتج ذلك بسبب إضافات الرواة المتعاقبة فأصبح موضوع تصنيف السيرة "موضوعا بالغ التعقيد بالمقارنة بمحاولات تجنيس الأنواع الأخرى من الأدب الشعبي، فنحن أمام السيرة نواجه شبكة عريضة من النصوص والمتون، ما بين مدون ومطبوع من جانب، وروايات شفاهية دائمة التغير من جانب آخر. ونواجه أيضا عددا من التنويعات والسياقات وأساليب التداخل والتآزر بين الأشكال (الأنواع الأدبية) داخل فضاء النص السيري"² وخلق طول السيرة وتنوع الأحداث المعالجة صعوبة بالغة لإدراجها ضمن نوع أدبي معين، وإن كانت آراء كثيرة تميل إلى اعتبارها

ملحمة، وذهب البعض إلى القول إن الملحمة جزء من السيرة: ... وأهم فرق هو اتساع السيرة الذي يشمل في طياته أكثر من ملحمة، لولا أنها تنكسر لتصبح مستقلة الموضوع بعيدا عن الجوانب الأخرى³.

أسهم هذا الطول، إضافة إلى التطور الحاصل على نمط الحياة الاجتماعية، في تراجع رواية السير الشعبية وانحسار الاهتمام بعدد منها، فبقيت حبيسة الكتب والمخطوطات، خاصة في مكتبة برلين، أو اختزلها بشكل كبير كما حدث لسيرتي عنتره و سيف بن ذي يزن. ولا يزال الرواة الشعبيون مبهورين بسيرتين منها، وظلت الرواية الشفاهية لهما مستمرة إلى وقت قريب، هما: "السيرة الهلالية" و"سيرة عنتره" اللتان تشتركان في نقاط عدة جعلتهما من أكثر السير الشعبية رواية ورواجا، وحببتهما إلى المستمعين والرواة، فبقيت تروى إلى وقتنا الحالي في بعض المناطق من الوطن العربي، بخلاف السير الأخرى التي تلاشت وأوشكت على الاندثار، ولم يتبق لنا منها سوى مخطوطاتها المدونة. فما هي أهم الصفات والمميزات التي رافقت البطل الشعبي، وحرصت السيرة على إظهاره وفقها؟

نلاحظ وجود سلما تراتبيا من القيم والبطاقات الدلالية الملازمة للشخصية الأساسية في المخيلة الجمعية للرواة، الذين يعمدون إلى مجموعة من الإسقاطات على البطل الشعبي متجلية وفق علامات تفاضلية محددة تتردد في رحاب جميع السير الشعبية مشكلة علامة جامعة بينها، وسنحاول فيما يأتي استخراج أبرز الميزات المشكلة للبطل، وجمل العلامات الدلالية المرفقة به في السير الشعبية العربية الأكثر تداولاً وانتشاراً في وقتنا الحاضر: السيرة الهلالية وسيرة عنتره، وسينصب تركيزنا على شخصيتي بطليهما أبي زيد وعنتره، وبالتحديد

في ظهورهما الأول عند الولادة، وما رافق ذلك من أحداث صقلت طبيعتهما وأهلتها لقيادة قوميتهما، ولأن ذلك سيلقي الضوء على مجمل أعمالهما وصفاتهما التي ظهرا بها طيلة السيرة.

المدونة

تتحدث السيرتان عن قوم لعبوا دورا حاسما في حياة أمتنا العربية، تناقلته كتب التاريخ والأدب، فعنترة شاعر مبرز، حفظ الأدب قصائده الحسان على غرار معلقته الشهيرة، وسجل رفقة قبيلته بطولات إحدى أشهر وأطول الحروب العربية حرب داحس والغبراء، وقال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: "ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة"⁴.

تعد سيرة عنترة من أكبر السير الشعبية طولا، إذ تمتد على مدار اثنين وسبعين جزءا، لكنها عانت من الاختزال ليصبح المتداول منها حاليا لا يتعدى الثمانية أجزاء، تروي قصة الشاعر الجاهلي، وفيها توارى التاريخ الأدبي خلف المخيلة الشعبية التي نسجت الكثير من التهويلات والخوارق حول الشخصية الأدبية وجعلت الحقيقة التاريخية تتوارى خلف حجب الرواية السيرية. وتركز الاهتمام بها في مصر والشام، في حين ترسخت السيرة الهلالية في مناطق المغرب العربي ورغب سكانه في روايتها وتداولها ونشرها.

تروي السيرة الهلالية قصة بني هلال "أجداد أغلب أبناء وطننا" كما وصفتهم روزلين ليلي قریش، هم أحفاد أول من قصد القصائد أبو ليلي المهلهل، قاموا برحلة طويلة من موطنهم الأول نجد إلى بلاد المغرب العربي بحثا عن أراضي جديدة هربا من الجذب والجوع، حتى قيل إنه "بعجالة يمكن إيجاز سيرة بني هلال واختزالها في موضوع قيمة:

هروب من الجفاف، اكتشاف مراعي جديدة، بحث عن وطن بديل، اصطدام بأهل البلد وعاداته، انتصارات، نكبات"⁵، وتشكل السيرة وثيقة تاريخية كونها "تعبّر عن أحداث مهمة في تاريخ الأمة العربية من الجزيرة العربية إلى البلاد المغربية مروراً بمصر وتونس والجزائر، وترجم على اختلاف اللهجات الوجدان العربي، مما يجعلها من أهم الروافد للذاكرة الشعبية المتأصلة"⁶. وتصور لنا نزاعاتهم القبلية وصراعاتهم الداخلية فيما بينهم، والتي انتهت بنهايتها المأساوية، حين قتل جميع أبطال التغريبة وشرّد أبناؤهم، الأمر الذي صورته المثل الشعبي القائل "كأنك يا أبو زيد ما غزيت"، بخلاف السير الشعبية الأخرى التي تنتهي بتحقيق بطلها رسالته القومية المنوطة به . فتحكي السيرة الهلالية "قصة صراع الذات العامة بين الترععات القبلية الكامنة والتروع القومي"⁷ مما أكسبها تفرداً وتميزاً.

تنقسم المخطوطة الرئيسية لها إلى ما يمكن تسميته ثلاث سير متتابعة "تضرب أولاهما بجذورهما الجاهلية وتصل إلى بضعة آلاف تغطي بدء تواجدهم في الجاهلية إلى إسلامهم"⁸ وذلك ببلاد السرو؛ وتبدأ الحلقة الثانية من رحلة الهلاليين يقودهم الحسن بن سرحان وأبو زيد بن رزق من بلاد السرو إلى نجد بسبب الجذب، وفيها يخوضون حروباً طويلة مع ما يسمى "التحالف اليهودي الخيري، ويؤرخ القسم الثالث لتغريبتهم الطويلة قاصدين بلاد المغرب العربي .

اهتمت السيرة الهلالية بإظهار بطولات كل فرد من قادتها الكبار، وإبراز شجاعته وقوته وخصاله الحميدة، ووصف معاركه المضفرة، قبل أن يجتمعوا جميعاً لقيادة الرحلة الطويلة نحو بلاد المغرب؛ ما أكسبها بعض الخصوصية والتميز، يصح اعتبارها سيرة أبا زيد لأنه الوحيد من جميع أبطال السيرة، من تعرضت له منذ مولده وإلى وفاته، فوصفها الدكتور

شمس الدين الحجاجي بالقول: "ليس هناك ملحمة واحدة فيها هذا الفصل المتسع عن مواليد البطل ثم التدرج السلمى نحو المراحل المختلفة لعمره كما يوجد في هذه السيرة. وسيرة بني هلال تبدأ بفصل مواليد البطل وتنتهي بفصل الأيتام، الذي يمكن أن يعد فصلا من فصول مواليد البطل أيضا، فمرحلة الميلاد تتكرر ثانية في بطل الهلالية الجديد علي أبو الحلقان"⁹.

لجأ الرواة إلى تقسيم هذه السيرة إلى مجموعة من القصص تروى على حسب المناسبة، ونزولا عند رغبة المتلقين، فيختلف البطل الأساسي من منطقة إلى أخرى بسبب تفضيل السكان لبطل على آخر، فهناك إذن "عملية تعرية للسيرة الهلالية"¹⁰ وذلك بانتقالها من السيرة الضخمة المدونة إلى "أجزاء وشذرات في شكل مواقف ومشاهد وقصص فرعية صغيرة"¹¹، ثم أن "الرواة لا يتمكنون إلا من جزء من السيرة ويسيطرون عليه ولأن المروي إليهم وظروف الرواية يتطلبان ذلك"¹²، فتخلد بعض المناطق قصة أبو زيد وتشيد بأعماله، بينما تتغنى مناطق أخرى ببطولات دياب وانتصاراته. ونقتصر من جملة القصص المنبثقة من رحم الهلالية على قصة أبي زيد الهلالي، وما واجهه في صغره من مآسي ونكبات وغربة بسبب لونه، إلى أن استطاع إثبات شجاعته وفروسيته، ونال أحقية الانضمام إلى المجتمع الهلالي وإثبات نسبه فيهم.

الاهتمام بالنسب

تحرص السيرة الشعبية إضافة إلى تصوير شجاعة شخصياتها وفروسياتهم ونبيل أخلاقهم وعلو صفاتهم، على جعل بطلها أصيل النسب قوميا وتاريخيا، بل وترتفع به في غالب الأحيان إلى أجداده الأوائل¹³ لأن "الوجدان القومي يرفض بطلا غريبا عنه"¹⁴، هكذا

خرج البطل الشعبي من رحم المخيلة الجمعية لرواة السيرة، متميزا بصفات جسمانية وخلقية قلما توجد لدى غيره، ميزات ورثها عن آبائه وتأصلت لديه بسبب جذوره الملكية النبيلة.

دفع السعي لتأكيد عراققة البطل، وإبراز صورته في أبهى حلة إلى أفراد جزء وافر منها للتمهيد لظهوره في شكل "مدخل السيرة التمهيدية" أو "المقدمة السياقية"، كما يسميها محمد رجب النجار، التي قد تمتد لمئات الصفحات، يذكر فيها الراوي شجرة النسب الخاصة بالبطل، حتى يصل به إلى أجداده الأوائل (السيرة الهلالية)، أو يعدد أمجاد قبيلته عبر التاريخ (سيرة عنتره)، أو يسرد مجمل الحوادث التي وقعت منذ بدء الخليقة إلى وقت ميلاد البطل (سيرة سيف بن ذي يزن). تسهم هذه التفاصيل والمقدمات الطويلة في وضع المستمع أو القارئ ضمن الجو العام للسيرة ويهيئ لظهور البطل، منبثا بالمهمات التي سيقوم بها طيلة القصة، فيصبح الطول نتيجة حتمية لذلك .

التغني بالأجناد العربية

بعد أن قضى الإسلام على الخلافات بين أبناء الشعب الواحد، والصراعات القبلية التي عرف بها العرب منذ القدم¹⁵، عادت إلى الظهور مجددا في فترة انتشار السير الشعبية، الذي يرجعه أغلب الباحثين إلى عهد المماليك وفترة الحكم العثماني، فأصبح جمهور المتلقين يفضلون هذا النوع من السير، المعبر عنهم وعن حالتهم الاجتماعية، ونزاعاتهم السياسية أصدق تعبير، خاصة أن مركز الخلافة الإسلامية العباسية كانت بيد الترك والديلم، ولم يكن للخليفة العربي سوى الاسم، جعل ذلك الضمير الجمعي يلتفت إلى السير الشعبية، يجتر من خلالها أمجاد العرب الماضية، ويتذكر بطولاتهم السابقة.

انصب اهتمام الرواة بوجه خاص على السيرة الهلالية وسيرة عنترة لأصولهما التاريخية، فالسيرتان ترويان حوادث عرفها الوطن العربي، ودون أبطالها أسماءهم في سجلات التاريخ، مع بعض التحويل لتلائم ذوق الجمهور و"لمزيد استقطاب اهتمام المستمع وشد انتباهه فهي أيضا من جملة التحولات الأساسية التي يمكن أن تخضع لها كل قصة ذات جذور تاريخية وتكون أهمية هذه التحولات بقدر ابتعاد الواقع الأسطوري عن الواقع التاريخي"¹⁶. فأعادت الثانية (عنترة) صياغة قصة الشاعر العربي الذي أعجب به النبي، كما صاغت الأولى (الهلالية) سيرة القوم الذين شكلوا نقطة التحول في حياة سكان المغرب العربي، إذ أنهم باندماجهم مع سكانه الأصليين أسهموا في "تعريب المغرب لغويا واجتماعيا بدخول العادات العربية التقليدية والأخلاق البدوية الأصيلة وذلك بعدما كان إسلاميا منذ أربعة قرون"¹⁷.

اهتم الشعب بالسير الشعبية عامة، وسيرتي عنترة والهلالية على الأخص، لأنها تصور تاريخهم الحافل بالأعجاد، وتذكرهم بانتصارات أجدادهم الأوائل، بكل ما يشوبها من نقائص وسلبات، أي أنها تحكي "قصة الماضي الجميل للأمة العربية من خلال تأريخها لحياة هذا البطل والتغني بمآثره البطولية العسكرية والقومية والدينية والسياسية والأخلاقية والإنسانية على نحو مثال، وتعكس من خلاله أحلام المجتمع الشعبي وتصورات، كما تعكس أيضا رؤية الضمير الجمعي العربي لنفسه وللعالم وللكون عبر تلك النصوص، بين ما هو كائن وما يجب أن يكون. وهذا التأريخ في حقيقته -مزيج من الوقائع التاريخية والمبالغات الميثولوجية، حتى قيل إن السير الشعبية هي التاريخ ينشد على أبواب الأسطورة"¹⁸، الماضي الذي يطمح الإنسان في الحاضر بأن يعيش فيه، أو على الأقل يتمنى عودة لحظاته الجميلة، لحظات السعادة بلذة الفوز وتحقيق النصر.

وهكذا يكون فن الحكاية "يكن في الترفيه من أجل التسلية فأحداثها لا تقع في أيامنا هذه ولا يصدقها الراوي ولا المستمعون ولكنهم يقضون بها وقتهم ويتعززون بها عن متاعب الحياة"¹⁹.

تتقاطع السيرة الهلالية وسيرة عنترة في نقطة أساسية أكسبتها التفرد والانتشار، والتميز عن غيرها من السير الشعبية: هي تطرقهما لأبرز قضية واجهها الإنسان العربي منذ القدم، وصورت نظرة المجتمع العربي لها وكيفية تعامله معها، نقصد بذلك مشكلة الانتماء والهوية القبلية التي وقف لونها أول الأمر حاجزا دونها.

الهوية القبلية وإشكالية الانتماء

كان الحربي حريصا على نقاء اللون، فخورا بلونه الأبيض، ما دفعه إلى استبعاد أصحاب اللون الأسود، ولعل ذلك راجع إلى نبوءة شعبية قديمة²⁰. وجسدت سيرة عنترة والسيرة الهلالية هذه النقطة، وعملت على تبيان آثارها ومسبباتها ونتائجها على الفرد والمجتمع، فيرتبط اللون الأسود "بعدد من الفاعلين المركزيين ويخلق لهم متاعب يظلوا يواجهونها ويحملون تبعاتها"²¹ مشكلا نقطة التحول الحاسمة في صلب السيرة الشعبية. فرفض شداد ابن قراد الاعتراف بعنترة بسبب لونه وظل منسوباً إلى أمه زبيبة، كما لم يتقبل رزق فكرة أن تنجب زوجته ولدا أسود فطردها وإياه. فما هي أبرز المؤثرات التي أسهمت في تكوين البطل الأسود في السيرة الشعبية؟

أ. النبوءة

يشكل أبو زيد الهلالي الركيزة الأساسية في السيرة الهلالية، والمحور الذي تدور عليه جميع الحوادث تقريبا، وما القصة ككل إلا تأريخ لمولده، وإرهاصات لتفوقه الحربي والفكري، وتسطير لبداية

بطولاته وشجاعته "حتى لتعرف به، وتكاد تكون قصته وحده وكل من عداه سائر في فلكه أو منازل له، وهو الوحيد الذي فصلت السيرة حياته منذ ولد إلى أن مات والمقدمة الأولى فيها توطئة للحديث عنه والخاتمة الأخيرة متفرعة منه"²²، فلم تهم السيرة ببطل آخر قدر اهتمامها به ففصلت التأريخ لحياته منذ مولده، وما واجهه في حياته من انتصارات وهزومات، سعادة وتعاسة وكل من عرفه من أصدقاء أو أعداء، إلى مقتله على يد دياب، بل وتعرضت لتعارف والديه وزواجهما.

لم تشأ السيرة أن تجعل مولده عاديا، فهو بطل متميز لذا وجب أن يكون مولده "غير عادي لكي يؤكد تميز شخصيته"²³ كذلك، فمهدت لمولده بوصية استشرافية للمستقبل :

إذا جاها ولد وكان أسمر	لا تظن في فعل الردا يا جيد
ترى ستهها سودا كان لوها	وجدها كان أسود كالعبيد
تظن بالخضرا القبح مع الردي	وتجعلها في سوء حال ونكيد ²⁴

ورث أبو زيد سواد لونه من جدي أمه، كما ورث عنتره سواده من أمه زبيبة، ويتفرد عنه بتصويره على أنه دعوة مجابة لأمه التي دعت الله أن يرزقها "ولدا ذكرا ولو كان لونه أسود لعله ينشأ يغلب الفرسان ويقهرهم"²⁵. وتحققت دعوة والدته، فولد أسود كالغراب، لكنه شجاع يتغلب على أعنى الأبطال والفرسان. ولعل بطولة رزق لم تقصد بحد ذاتها، وإنما للتدليل على بطولة ابنه المستقبلية، وبعد أن كان بنو هلال يقولون "ما في أفرس من رزق"²⁶، اتضح لهم أن بركات أفرس منه وأشجع، كيف لا و"من شبه أباه فما ظلم". مهدت السيرة "لولادة هذا البطل (أبو زيد) بحادث فذ لا يجعله من نسل كائن خارق

أو غير بشري، وإنما جعلته يولد كما يولد غيره من الصبيان²⁷ لكنه مرتبط بنبوءة شكلت أساساً لحياته فيما بعد، ونقطة التحول فيها.

ب. الميلاد

تفتتح السيرة الشعبية بذكر الأحداث السابقة لمولد البطل، حتى يأتي بشكل المنقذ والمخلص الذي ينجد قبيلته وقومه، مدافعاً عن رسالة إنسانية سامية. وهكذا لا يولد البطل الشعبي كغيره من المواليد، بل تنسب إليه صفات يكتسب بها تفرد، فزبيبة "ولدت مولوداً ذكراً أسود الوجه عظيم المنكبين عظيم الجثة كبير الرأس يشبه الأمير شداد، ففرح به هذا الأخير فرحاً عامراً وأسماه عنترة"²⁸، وحباه الله بقوة جسدية هائلة يقلع بها الأوتاد فتسقط الخيام على أصحابها، ويطارد الكلاب وهو لما يتجاوز الستين من العمر. ولم يورد القاص الشعبي قوة البطل الهائلة عفواً، وإنما للتبيان على الدور الذي سيلعبه فيما بعد في حياة قبيلته.

يؤيد القاص نسب عنترة الصريح من جهة والده، بإبراز نسب الأم "... فهي ابنة النجاشي ملك الحبشة واستناداً إلى هذه الحقيقة فقد كان من حقه أن يفاخر بشرف الانتساب إلى بني عبس وشرف الانتساب إلى ملك الحبشة في الوقت نفسه، وفي ذلك تعليل فني قد يبرر سوغت به الملحمة تفوقه في قوة البدن وقوة النفس، كما بررت ترفعه عن الصغائر وعفته عند المغامرات"²⁹. ورث عن أمه زبيبة سواد اللون وعفة النفس، والحفاظ على الشرف، كما ورث عن أبيه القوة والشجاعة "وكأنما يريد المؤلف أن ينبهنا إلى أن الأب رجل غير عادي وأن الأم امرأة غير عادية وأن هذا اللقاء بين الاثنين لقاء غير عادي كذلك، وبالتالي فإن المولود الذي هو حصيلة هذا كله لن يكون وليداً

عاديا"³⁰، فأثمر اجتماع القوة والشجاعة العربيتان مع الاعتداد بالنسب الأميري إنجاب فارس متميز، لخص مذهبه في الحياة بقوله:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

ج. الغربية

يجابه البطل الشعبي منذ لحظة ولادته مشكلة الانتماء، إذ يرفض من طرف والده، وبالتالي يفقد نسبه إلى القبيلة وانتمائه لها، فيواجه "معضلتين أساسيتين منذ بدء ظهوره، هما ولادته الغربية وعدم تبني الأب له . إن الرواة يهيئون ظروفًا غير طبيعية لولادة أبطال السير"³¹ فيعيش في غربة، فإن نتجت غربة عنثرة عن رفض قومه له وعيشه منبوذا بينهم، بسبب عدم قبولهم له وإصرارهم على إلحاقه بالعبيد، نحت غربة الآخر منحى آخر بإبعاده عن مكان الميلاد، فقد كان لمولده "أكثر من دلالة على صعيد الحكى لأنه سيؤكد العديد من الأفعال الحكائية التي تزيد من تعقيد الأحداث وتناسلها"³². وكان اللون هو جوهر مأساته بسبب رفض رزق الاعتراف به وتطليقه لوالدته وطردها نتيجة تشكيكه في أخلاقها، فانفصل عن والده وقبيلته منذ ولادته وعاش متحررا من السلطة الأبوية.

ينمي البطل، بعد إبعاده، قدراته العقلية والجسدية، ليتسنى له التفوق والبروز فيما بعد، والغاية من ذلك " تبرير عملية الانفصال كفعل وغاية، حيث الاغتراب هنا يأتي تمهيدا لاكتساب البطل قيما ثقافية واجتماعية وسياسية مغايرة لقيم الجماعة السائدة، فيكون هو هو وليس هو هي حتى يتسنى له قيادتها نحو التغيير فيما بعد"³³، فيتمرن عنثرة العبد على الرماية وركوب الخيل، والمبارزة بالسيف، مما أهله ليقود قبيلته نحو النصر في أكثر من موقعة . وتربى أبو زيد في قصر

الملك الزحلان وتعلم " لعب الرمح وأبواب الحرب مدة خمس سنوات حتى تعلم جميع العلوم"³⁴ وأتقن مختلف اللغات والحيل، حتى امتاز بحيلته الواسعة ومكره البالغ تجاه أعدائه.

د. الشجاعة والفروسية

تحرص السيرة الشعبية على تقديم صورة صادقة عن خصال العرب التي اشتهروا بها، وخاصة الشجاعة التي شكلت سمة بارزة لأبطالها، لاسيما وأنهم ينحدرون من البدو³⁵، الذين يرى ابن خلدون أنهم أكثر شجاعة "لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتبازهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن المحجوع إلا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب"³⁶، فقد فرضت البيئة البدوية على سكانها نمطا من الحياة أكسبتهم صلابة وقوة.

شاءت الظروف أن تندلع حروب قاسية "لتمخض عادة عن أبطال ينمون في الخيال ويعظمون في الصدور حتى ينسب إليهم الخوارق وتخلع عليهم المحامد فيسير بذكرهم الرواة، ويتحدث بأفعالهم القصاص وتنتقل شهرتهم من فم إلى فم ومن جيل إلى جيل، ثم تتسع وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثا وطنيا وتراثا قوميا"³⁷، فلولا "داحس والغبراء" لما بلغ عنتره هذه الميزة، فنسجت حول شخصيته الأساطير، ونسبت إليه خوارق لا يستطيعها الإنسان العادي. ولولا تغرية الهلالين وما جأهوه فيها من مشاق وأهوال، وانتصارهم على أبرز الفرسان والقادة من أمراء البلدان التي مروا بها في طريقهم للمغرب، ما وصلتنا سيرتهم، وما تعرفنا على أبرز أبطالهم.

وتصقل الغربة شخصية البطل الشعبي، فيكتسب البطل الشعبي شجاعة فائقة، ويتدرب على مختلف أساليب القتال حتى يشتهر أمره ويعلو ذكره، فضربت الأمثال عن بطولات عنترة، فكان "تجسيده في أشعاره لبطولة العرب في الجاهلية، من جميع أقطارها الحربية والنفسية والخلقية، سببا في أن تنصبه العصور التالية تمثالا للبطولة العربية، وكأنه أصبح الناطق عن شعاراتها"³⁸. نشأ البطل في مضارب بني عبس، ورد عنهم غارات الأعداء وحمى نساءهم من السبي والذل، لكن والده لم يعترف به "خشية مذمة العرب"، وهدده حين صارحه برغبته في التحرر قائلا: "لقد حدثتك نفسك بشيء يكون لك فيه الهلاك ... وصرت تعدني بأن ترفعني، مع أن ما تطلبه يرفع قدرك ويضعني .. ولم يعد لك عندي سوى الضرب بالحسام"³⁹، فاعتبر المطالبة بالحق والاعتراف بالنسب إهانة ووضاعة شأن، وظل يسمى "ابن الأمة" "العبد الأسود" "ابن زبيبة"، وحين رفض عنترة الدفاع عن بني عبس معلنا: "العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر"، أدرك شداد أنه إن لم يهب عنترة لنجدة القبيلة فستنهب أموالها وتسيئ نساؤها، ويققون معرة بين العرب، يعانون من الذل والإهانة، فرفض لطلب ابنه واضطر للاعتراف بنسبه حتى يحمي القبيلة ووعدته "كر وأنت حر". من هنا يظهر إن القبيلة تحتل عند العربي المركز الأول، وفي سبيلها يهون كل شيء.

تعلم أبو زيد في بلاد الزحلان فنون القتال وتمرس فيها، حتى استطاع هزيمة فرسان بني هلال، وكاد يقتل والده لولا اعتراف أمه بالحقيقة، فيكتفي بلومه "تخالف كلام ربك في تكوين خلقه فإذا كان الابن ما يشابه أباه تقول عنه ابن زنا"⁴⁰. وبالع الرواة في وصف مهاراته القتالية حتى "أخرجوها من الممكن وتجاوزوا بها

الطاقة البشرية وكادوا يسلكونها مع الخوارق " فهو "كفاء جيش بأسره إذا صرخ ارتعدت له الفرائص تسبقه شهرته وتؤثر في منازلہ تجندل الضربة الواحدة من سيفه العدد الذي لا يحصى من عدوه ويقذف برمحہ إلى مدى لا يبلغه البصر"⁴¹ فهو بطل المهمات الصعبة، وكم أنقذ أمراء الهلالين من الأسر، و قتل أعدائهم الأقوياء، ممهدا لهم سبيل الوصول إلى بلاد المغرب لكنه لم يقدر له، بسبب نبوءة أخرى، أن يتم انتصاراته بقتل خليفة الزناتي، فلا تعقد له البطولة العسكرية في أشهر حلقات السيرة، لا لنقص في مهاراته أو لتفوق دياب عليه، بل لأن الأقدار شاءت ذلك منذ القدم، بل إن الزناتي نفسه كان يخاف من أبي زيد، ويغلق عليه أبواب المدينة ويرفض منازلته، لكنه عمي أمام القدر وأمام كلام ابنته سعدى وخرج لدياب محققا النبوءة⁴².

تشكل بعض السير الشعبية مجالا خصبا للخوارق، كما في سيرة سيف بن ذي يزن، فتتسم "باللامعقولية والمبالغة والإفراط في الخيال"⁴³ لكن تقل هذه الخوارق في سيرتي عنتره والهلالية لتندرج ضمن الغرائبية وحسب، يعبر عنها بالشجاعة المفرطة والقوة الهائلة، وتظهر فيها العناصر الخارقة متباعدة أو خافتة أو قريبة من الختام ولكنها مع ذلك موجودة تشهد بطبيعة الإبداع الشعبي وفطرة المخيلة الشعبية وتؤكد في الوقت نفسه إنها تحكي الرحلة من واقع يؤكد العجز والتقييد إلى مثال يشيع منه العدل ويتسع فيه الشعور بالقدرة فتتحرر الإرادة كما يتحرر الفكر والضمير"⁴⁴. سعى القاص الشعبي عند كتابة السير الشعبية إلى المثالية، وتحقيق العدل والمساواة في مجتمع يسوده الظلم والعجز، فلم يجد أبلغ من القوة الجسدية والفروسية الحربية لتحقيق غايته، فراح يتستر وراء أبطال شعبيين من غابر الأزمان، متغنيا بأمجادهم، مضيفا عليهم صفات خيالية ليحفز الشعب للانطلاق والتحرر أسوة بأبطاله المحبين.

هـ. البحث عن الحرية

تشكل الحرية الفارق الوحيد بين عنتره وأبي زيد فالأول عانى من مرارة الاستعباد بينما نشأ الثاني وشب حراً، ولد كل منهما أسود اللون مما تسبب في إبعاده وغربته، وتنكر والده له، فلجأ إلى إثبات نفسه ووجوده في ميادين القتال حتى ينال التقدير ويسترد مكانته المفقودة . لكن شجاعة أبا زيد مدعومة باعتزازه بحريته أهله لاستخلاص اعتراف رزق والهلاليين بنسبه فانضم إليهم وشارك في قيادة جموعهم ولم يعد لونه يشكل عائقاً في سبيل زعامته ومكانته الاجتماعية، أما شجاعة عنتره فقد كانت لهدف إضافي أسمى هو الحرية، فرغم قيامه بصد العدوان على القبيلة أكثر من مرة إلا أن والده لم يجرؤ على الاعتراف به، فشداد ومن ورائه القبيلة بأكملها "لا تشأ على الإطلاق إلا أن تضع عنتره في مكان العبيد رغم كل ما يقدمه لها من حماية ورفعة شأن"⁴⁵، فمنحوه بسبب عبوديته نصف سهم من الأسلاب والغنائم "أنت تستحق أكثر من ذلك لحسن فعالك، ولكننا نخاف معرة العرب إن قسمنا لابن الأمة مثل ابن الحرة"⁴⁶ متناسين فعاله الباسلة عند القسمة رغم أنه حمى الأعراض حماية الفرسان.

وهب عنتره نفسه وبذل جهده لينال اعتراف شداد بأبوته له، فينال حريته المفقودة، وينعم بانتصاراته مزهوا مع الأمراء والقادة. فإن كان التوتر قد انتفى في السيرة الهلالية بالاعتراف الأبوي والقبلي بالبطل، فانطلق وإياهم لتحقيق "القضايا المحورية الأخرى" وعلى رأسها إيجاد أراض خصبة جديدة للهلاليين وريادتهم نحوها، إلا أن السعي إلى الحرية يظل حثيثاً في سيرة عنتره، فرغم افتكاكه الاعتراف الأبوي والحرية المنشودة "كر وأنت حر" إلا أنه كان من الصعب على المحيطين به تقبل الفكرة "فيظل الصراع والتوتر قائمين طوال السيرة بين الثقافة السائدة والثقافة المرجوة، أي بين عنتره وقومه، فهو حر حين يحتاجون

إليه، وهو عبد كلما لاحت لهم بادرة الاستغناء عنه وعندئذ تحقيق بهم الهزيمة . وهي إشارة على غاية الذكاء من المبدع الشعبي ..⁴⁷ . وكيف يقبلونه حرا وهم يشاهدون بينهم أمه الأمة وشقيقاه العبدان؟ وكيف يتناسون ما توارثوه من عرف منذ قديم الزمان بأن يبقى ابن الأمة عبدا ولا يلحق بالسادة؟

ظل عنتره يدافع لينال اعتراف المجتمع العبسي كله به بعد أن نال اعتراف والده، فراح ينشد الحرية من أفواه العبسيين جميعا بعدما حصل عليها من شداد، لم تعد تعنيه الحرية بذاتها قدر ما تعنيه مستلزماتها من رفعة وتقدير ومكانة، لذا فإن "العقدة النفسية التي دفعته إلى النهوض لتحقيق الوجود الحر لم تزل، بل ظلت تعمل عملها المستمر فيه لتحقيق التفوق، ذلك لأنه إذا كان قد أحرز المساواة في الحرية من الناحية المعنوية، فإن لونه ظل عقبة بينه وبين قومه، بل ظل كالسمة والسحنة التي تعبر عن أصل مباين، ولهذا لم ينقطع هذا الفارس الأسمر عن الإحساس بالاختلاف، والشعور بالنقص، ولا بد لمن في مثل حاله أن يجترح المعجزات ليرغم المجتمع على الاعتراف، ليس بمساواته بهم فقط، ولكن بامتيازته وسبقه"⁴⁸ . افتك عنتره حريته لكنه لم يتمكن من حذف الألقاب المعبرة عن ماضيه التعيس وظل يسمى "ابن الأمة" "العبد الأسود" "ابن زبيبة"، رغم كل ما قام به من جلائل الأعمال.

نلمح عند هذه النقطة فرقا جوهريا بين السيرتين ففي حين ظل عنتره يعير بوضاعة أصله رغم عظيم أفعاله، نجد أن أبا زيد ارتقى في رتب السيادة بعد أن نال اعتراف الهلالين به، ليصبح زعيمهم الثاني بعد الأمير حسن، ودليلهم في تغريبتهم الطويلة وصاحب الرأي والمشورة فيهم فلا يقطعون أمرا دونه، فلماذا اعترف الهلاليون بأبي زيد ورفض بعض العبسيون إكرام عنتره وحرصوا على نصب المكائد له؟

يتضح لنا باستقراء السيرتين أن التمايز بين الشخصيتين يتمحور في شخصية الأم، فحضرة الشريفة زوجة رزق من أصل رفيع، في حين أن زبيبة هي أمة مملوكة لشداد، و"الشخصية هي بناء للنص نستطيع القول أن النص مقروء بالنسبة لمجتمع ما أو حقبة معينة لما يكون هناك توافق بين البطل ومحيط أخلاقي معترف به من طرف القارئ"⁴⁹. ينسب الشعب العربي أبناء الإماء في عداد العبيد مهما بلغت عظمة أعمالهم وجلالها، فتبقى زبيبة أمة حتى ولو ارتقى بها القاص الشعبي إلى مصاف الأميرات، لذلك كان لزاماً أن تلازم صفة العبد ابنها حتى بعد أن اكتسب حرته . بخلاف حضرة الشريفة التي يعترف الجميع بشرفها وعفافها، ولد ابنها نتيجة زواج شرعي وليس بعد تملك جارية.

يحيل ذلك على أهمية النظام الأموسي آنذاك، فاستبعد عنتره مع أمه، وورث أبو زيد رفعة نسب أمه، التي ارتبط بها منذ الصغر، فطردا معا، منفصلا عن السلطة الأبوية ولم يعاود الاتصال بها ثانية، فلا ينسب إلى والده كغيره من أبطال السيرة مثل الحسن بن سرحان، دياب بن غانم، بدير بن فايد وغيرهم، ويسمى طيلة السيرة بأبي زيد أو بركات أو سلامة، وما إليها من أسمائه المتعددة، دون أن يرتبط مع والده في الاسم، فلا نواجه بلقب أبي زيد ابن رزق، وفي هذا إشارة إلى اختفاء السلطة الأبوية لدى البطل الهلالي الأسود أو عدم خضوعه لها.

تركيب

تبقى السير الشعبية مجالا خصبا ومادة متنوعة للإحياءات والدلالات، تمد الباحث في أغوارها بزاد لا ينضب، وتشكل مجالا مفتوحا لتعدد القراءة والتأويل. ورغم تشابهها في نقاط عديدة، منبعها الدوافع والإرهاصات التي أدت إلى ظهورها، والطقوس المواكبة لروايتها وانتشارها، ورغم تماثلها أحيانا، إلا أنه لا يخرج عن مقارنة الرسم

للأصل، ليظل الاختلاف بينها هو السمة البارزة عليها، فكل واحدة منها تهم بتصوير بطولات شخص أو جماعة انتخابها القاص الشعبي من أعماق التاريخ، لذا تتمايز السير بتمايز الشخصيات المعبرة عنهم، والكاشفة لنواحي شجاعتهم، ناهيك عن دور المتلقين الذين تتعدد ميولاتهم واهتماماتهم ويختلف تبعاً لذلك أبطالهم الشعبيون، مما لم يكن للقاص محيص عن إثباته في عمله.

تستمر السير الشعبية العربية في حكاية أجداد الأجداد لقرائها جيلاً بعد جيل، وتبقى ميداناً غنياً للبحث والدراسة، وما أثبتناه سوى نقطة من فيض، وتظل مجاهل سيرية عديدة تنتظر من يسبر أغوارها ويغوص في أعماق مجاهلها لإخراج دررها الكامنة، ونشرها حتى يتحفز أبناء اليوم للاستزادة من تراثنا الشعبي الخصب.

الإحالات

1. عبد الحميد يونس، "الحكاية الشعبية"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة، ص 60.
2. محمد حس عبد الحافظ، "سيرة بني هلال روايات من جنوب أسيوط" تقديم الدكتور أحمد علي مرسى الجزء الأول الهيئة المصرية العامة للكتاب 2006 ص 31.
3. ونذكر من هؤلاء الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي. راجع المرجع السابق ص 27.
4. رحاب عكاوي، "ملحمة العرب سيرة عنترة بن شداد"، دار الحرف العربي لبنان، الطبعة الأولى 2003 ص 24.

5. "من قضايا التلقي والتأويل"، 1995 منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة ندوات ومناظرات رقم 36 مقال بعنوان "نظرية سيميائية التلقي في مقاربة نص السيرة الشعبية سيرة بني هلال نموذجاً" مقال بقلم الأستاذ المصطفى الشادلي ص 135.
6. المصطفى الشادلي. "نظرية سيميائية التلقي في مقاربة نص السيرة الشعبية سيرة بني هلال نموذجاً". ص 134.
7. محمد رجب النجار. "الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي" الهيئة المصرية العامة للكتاب 2006 ص 63.
8. شوقي عبد الحكيم. "السير والملاحم الشعبية العربية" دار الحدائق للطباعة والنشر والتوزيع الحمراء لبنان الطبعة الأولى 1984 ص 178.
9. محمد حس عبد الحافظ. "سيرة بني هلال روايات من جنوب أسبوط" ص 27.
10. "سيرة بني هلال" أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية الحمامات تونس 26-29 جوان 1980 الدار التونسية للنشر تقدم عبد الرحمان أيوب، المعهد القومي للآثار والفنون ص 46.
11. المرجع السابق مقال بعنوان "مدارس رواية السيرة الشعبية في مصر". عبد الحميد حواس. ص 69.
12. المرجع السابق ص 50.
13. ينتهي نسب الأميرة ذات الهمة إلى بني كلاب، وعنترة إلى نزار بن معد بن عدنان، وسيف بن ذي يزن إلى ملوك اليمن وصولاً إلى سام بن نوح، والهلاليين إلى الزير سالم المهلهل.
14. عبد الله إبراهيم، "السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت. الطبعة الثانية 2000. ص 185.

15. حرب داحس والغبراء والتي صورت سيرة عنترة جانباً هاماً منها قامت بين أبناء العمومية قبيلتي عبس وذبيان بسبب فرسين، كما قامت حرب البسوس بين بكر وتغلب والتي أرخت لها سيرة الزير سالم بسبب ناقة، والهلاليون ما إن انتصروا على خليفة الزناتي ودانت لهم بلاد المغرب حتى التفتوا لافناء بعضهم البعض .

16. أحمد ممو في كتابه "دراسات هيكلية في قصة الصراع" الدار العربية للكتب 1984 مسجلة عن رواية من تمزرت، تونس ص 172.

17. روزلين ليلي قريش. "القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي". رسالة لنيل الدكتوراه من الحلقة الثانية إشراف عبد الله الركيبي ص 96.

18. محمد رجب النجار "الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي" ص 21.

19. غراء حسين منها "أدب الحكاية الشعبية" الشركة المصرية العالمية للنشر 1997 ص 126.

20. في سيرة سيف بن ذي يزن حديث عن دعوة نوح على ابنه حام الذي ضحك لما انكشفت عورته في السفينة بأن يسود الله لونه ويصير أبناؤه عبيدا لأبناء أخيه سام، وبما أن العرب من ولد سام والسود من ولد حام فاستعبادهم أمر مشروع.

21. سعيد يقطين، "قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية". المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى 1997. ص 122.

22. عبد الحميد يونس "الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي"، جامعة القاهرة 1956 ص 186.

23. أحمد ممو "دراسات هيكلية في قصة الصراع"، ص 199 وقد توصل لهذه الملاحظة نتيجة دراسته لقصة من القصص المروية عن بني هلال والتي جعلت الخضرا تصاب بالعقم وتنجب بركات بعد سنوات استحابة لدعائها.

24. "سيرة بني هلال" ص 36.

25. المصدر السابق، ص 37.
26. المصدر السابق، ص 52.
27. رحاب عكاوي "فرائد اللال في سيرة بني هلال"، ص 13.
28. سيرة عنتره ص 46.
29. رحاب عكاوي "ملحمة العرب سيرة عنتره بن شداد" ص 23.
30. فاروق خورشيد، محمود ذهني، "فن كتابة السيرة الشعبية"، منشورات ص 106.
31. عبد الله ابراهيم. "السردية العربية" ص 185.
32. سعيد يقطين. "قال الرواي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية". ص 119.
33. محمد رجب النجار، "الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي"، ص 36.
34. "السيرة الهلالية"، ص 43.
35. تقدم لنا سيرة عنتره والسيرة الهلالية صورة صادقة عن حياة البدو، معبرة عن كيفية تأثير البيئة البدوية على مسيرة البطل الشعبي، وكيف تتحكم في أخلاقه وتصرفاته.
36. ابن خلدون "المقدمة".
37. روزلين ليلي قريش، "القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي"، ص 114.
38. شوقي ضيف "البطولة في الشعر العربي"، ص 30.
39. سيرة عنتره ص 64.
40. "السيرة الهلالية" ص 53.
41. عبد الحميد يونس، "الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي" ص 187.
42. راجع "فرائد اللال في سيرة بني هلال"، ص 320.
43. فاروق خورشيد، محمود ذهني، "فن كتابة السيرة الشعبية" ص 36.
44. عبد الحميد يونس "الحكاية الشعبية"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ص 66.
45. فاروق خورشيد، محمود ذهني "فن كتابة السيرة الشعبية" ص 111.

46. "سيرة عنتره" ص 67.

47. محمد رجب النجار، "الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي" ص 50.

48. "سيرة عنتره" ص 9.

49. Philippe Hamon. *"Pour un statut sémiologique du personnage"*
Editions du Seuil. P 153.